

جان پول سارتر ومواقفه

الخيال والوجود

إن نظرة نلقبها على موضوعات الخيال تدلنا على أن هذه الموضوعات ليست قائمة في عالم الواقع الذي تدركه الحواس ويحوى ما يحيط بنا من أجسام وحيوان وأناس مثلنا. بل إن عالم الخيال لا يشترك في حياة «الأناس»، ولا يشترك تطوره، إن صح التكلم عن تطور، في تغير «الأناس». ولعل أقوى دليل على «عدم» موضوعات الخيال كونها لا تبدو قائمة في زمن ما: فلا يمكننا أن نلاحظ موضوع خيال في تغير زمني متصل، بل غاية ما ندركه لحظات نتصور فيها الحوادث الخيالية، وهذه اللحظات الخيالية، حتى إن بدت متقاربة فهي مع ذلك متفرقة متميزة، لا يربط بينها إلا اتجاه الفكر للحوادث المتخيلة، وربطه المستمر بين أجزاء الحادث الخيالي، وأقل تفكير في حلم من أحلامنا يؤكد ذلك تمام التأييد. وقد يعترض بأننا نشعر عند مطالعنا لقصة من القصص بأن حوادثها تقوم في الزمن، وأن منها ما يعطينا شعوراً بالزمن شديد القوة والحيوية. قد يتعذر الإجابة على الاعتراض إن لم تفكر في أن القصص لا يوحى إلينا بالزمن مباشرة بل يعمل على التأثير فينا، وعلى إثارة اهتمامنا بحوادث القصة، حتى ينتقل زمننا الشخصي إلى هذه الحوادث فيربط بينها، ويعطيها وحدة أو شبه وحدة. وليس من شك في أننا عندما نطالع فصول قصة رائعة مثل إحدى قصص دوستويفسكي أوسارتر نفسه (في الغثيان مثلاً) نحس بكثافة زمنية للحوادث. وهذا الإحساس ذاته نتيجة اجتماع شعورين، شعور المؤلف بالزمن وشعور المطالع به. وتقوم في هذا الزمن المزدوج حوادث لها قوة، إن لم تحاك في حقيقتها قوة الحوادث الواقعية، فهي قد تفوقها من حيث تأثيرها في العواطف. وما ذكرناه في المقال السابق عن صلة الخيال بالعوامل العاطفية يؤكد ذلك.

والموضوعات الخيالية غير موجودة في المكان أيضاً، أو أن مكانها غير المكان النسبي الذي تتعين فيه مواقع موضوعات الحس في كسباتها أو تغيراتها المتبادلة. مكان الموضوعات الخيالية مطلق، أقصد أن تعييناته المكانية خاصة به، جزء منه، لا تنفصل عنه، لهذا الموضوع مكان كما لموضوعات العالم راحة أو لون أو طعم. ومكانه مطلق بمعنى أدق؛ لأنه لا يتعين بالنسبة لموضوعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه، يتجه نحوها أو تتجه نحوه. فعندما أتخيل صديقاً لي أقرر أنه قصير أو طويل أو سمين، على الإطلاق، لا أفاضه بموضوع آخر أكبر أو أصغر، أسمن أو أنحف، كما لو كان الطول أو القصر أو غيره من الصفات المكانية منسوبة له كما يُنسب الأحمر للطربوش. وإذا كنت أتخيله سائراً في الطريق، فهو لا يتقدم في تصوري، ولا يتأخر بالنسبة لغيره من الناس أو الأجسام. وإن تخيلته في غرفته فكأنه جزء منها، أو كأن غرفته جزء منه تلتصق به ولا تنفك عنه.

هذا معنى قول سارتر إن موضوعات الخيال خارجة عن الوجود، وأن لا زمن ولا مكان لها. ويرى سارتر بالإجمال أننا نلمس في الموضوعات الخيالية شاهداً على أن ثمة عدما هو موضوع الشعور، وأن الحوادث الخيالية هي هذا العدم، أو مظهر واضح له، إن أمكن وجود مظهر لما لا وجود له. وليس الخيال إلا فعلا يسجل الاعتراف بهذا العدم.

هل تجوى النفس إذن فعلين متناقضين: الخيـال والإدراك الحسي؟ وهل هناك موضوعات يكفي أن تتمثل للذهن حتى تختفي موضوعات الواقع؟ وكيف يصح هذا التناقض ولا يحدث عنه في النفس خلل وفي العالم اضطراب شديد؟ ولكن ربما كان الخيال شيئاً غير أساسي في النفس، وفعلاً طارئاً عديم الأهمية إذا ووزن بالإدراك الحسي، وعرضاً في جوهر النفس ليس له ما يؤثر فيها أو ما يخل بتوازنها. وربما كان الموضوع الخيالي أيضاً يعرض لنا دون أن يحدث بذلك في العالم اضطراباً أو خللاً، هو على هامش الوجود، تعرض له النفس وتقصد في لحظات زائلة، وعندما تكون النفس ذاتها على هامش وجودها الشخصي تلهو به وتلعب في لحظات فراغها، كما تلهو الصبية وتلعب. أليس موضوع الخيال عدماً، أي لا شيء، أي ما ليس وراءه شيء — أي باطلاً وعبثاً، يجب ألا نقف عنده، ولا نعيره أي التفات، وألا نخلق منه مشكلات؟

إذا كان الخيال على هامش النفس وكانت موضوعاته على هامش العالم، أعراضاً طارئة لا أهمية لها، فليس ثمة ما يسوّغ قيام الخيال في النفس، أقصد أننا لسنا في حاجة إلى مبادئ فلسفية تفسره. وليس صادراً عن جوهرها من حيث هي مدركة، وليست موضوعات الخيال صادرة عن جوهر العالم من حيث إن العالم موجود، وإن النفس تدركه. ويصح إذن في هذه الحالة أن نهمله كفلاسفة والأنتعتدّ به، كما لا نعتدّ من حيث نحن فلاسفة بأعراض النفس الغريبة وأمراضها. أما إذا كانت هناك شروط تسوّغ قيام الخيال وتفسر موضوعاته، إذا كان هناك ما يجعل الخيال وموضوعاته أشياء «ممكنة» على حد تعبير كنت، فيصبح ثمة مجال للسؤال كما فعلنا: كيف يمكن قيام الخيال وموضوعاته، دون أن يؤثر في النفس، ويحدث فيها وفي العالم خلالاً أو اضطراباً؟

لستدل من التفكير فيما بيناه من عوامل الخيال ومن طبيعة موضوعاته وكيفية مشوّلها للنفس، أن ثمة شروطاً فلسفية تفسره وتجعله «ممكناً» بين أفعال الشعور، وخاصة ما ذكرناه من أن موضوع الخيال غير قائم في الوجود. وهذا معناه على الأقل شيئان: (أولاً) أن الخيال يحمل حامل إنكار، بل إنه في ذاته فعل سالب إن لم يكن حكماً سالباً بالمعنى الدقيق. فنحن عندما نتخيل ننتفي عن موضوع خيالننا خصائص الوجود كما تمثل لنا في الإدراك الحسي. الخيال إنكار إذن أو تصور مقترن بإنكار. (ثانياً) الخيال يحررنا من شرائط الوجود العالمي، فهو إذن شرط لحرية النفس؛ إذ أننا عندما نفكر في الخيال، فنحن نقطع ارتباطنا بالعالم الموجود، ومن ثمة لا نخضع لقوانينه. وفي الخيال نشعر بأن موضوعاته، حتى ما كان من بينها قابلاً للإدراك حسي فعلي، تصدر عن النفس لا عن الخارج، ثم تختفي في النفس بإرادتها.

نصل إذن إلى تفسير الخيال تفسيراً فلسفياً، وإلى وضع شروط «إمكانه» عندما نلاحظ أنه يقوم من ناحية على قدرة في النفس على النفي، ومن ناحية أخرى على حرية النفس، وبتعبير آخر على قدرة النفس على إنكار العالم بمجملته، وعلى التحرر من العالم بمجملته. يتطلب الخيال إذن استطاعة النفس الابتعاد عن العالم، واتخاذ مركز تشعر النفس فيه بأنها في معزل عن العالم، مركز يمكنها منه أن تنكر العالم بالنسبة إليها، وأن تنكر ذاتها بالنسبة إلى العالم. العالم في هذا المركز

معدوم بالإضافة إليها ، وهي في هذا المركز معدومة بالإضافة إلى العالم . وهذا معنى ما يقرره سارتر من أن الخيال فعل معدوم ، للعالم والعدم يتطلب موضوعاً . يبدو إذن أن التناقض بين الخيال وبين الإدراك الحسي أمر لا مفر من الاعتراف به . ولكن علينا أن نسأل مرة أخرى : كيف يصح الإقرار بهذا التناقض دون أن يحدث عنه في النفس اضطراب وفقد توازن ؟ وكيف يصح قيام تناقض صريح بين فعلين ، مثل الإدراك الحسي والخيال ، يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما يفترض قيام الآخر ، وتحاكي موضوعاته موضوعات الآخر ؟ أظن أن الأمر يحتاج إلى مراجعة آرائنا عن الإدراك الحسي وعن الشروط التي يقوم عليها . الإدراك الحسي تقرير للواقع ، تقرير لموضوع في العالم من حيث إن هذا الموضوع حاضر أمام الذهن حضوراً فعلياً . ولكن كي يحتفظ هذا التقرير بقيمته ، وكي يقوم إدراك حسي بالمعنى العام ، يجب أن نفترض ، بين فعل الإدراك وبين الموضوع المدرك ، تمييزاً دقيقاً . وواضح أننا في إدراكنا الحسي لشيء واقعي لسنا مختلطين بالشيء ، وأننا نميز ضمناً ، عن الشيء ذاتنا المدركة ، لا في طبيعتها فحسب ، بل في شرط وجودها أيضاً . ومعنى هذا أن الإدراك الحسي يتضمن إمكان قيام النفس بمعزل عن العالم الذي تدركه أو عن موضوع منه . ولكن ما هذا الشرط الضمني للإدراك إلا ما ذكرناه بالذات عن الخيال ؟ يفترض كل من الخيال والإدراك عالماً واقعياً ، ويتخذ الإنسان لذاته في كل منهما موقفاً إزاء العالم وموضوعاته ، ويميز ذاته في كل منهما عن هذا العالم .

لا يذهب إذن الاختلاف بينهما إلى حد يمنع اتفاقهما ومشابهة موضوعات أحدهما لموضوعات الآخر ، ولا إلى حد يحدث اضطراباً في النفس وفقداناً لتوازنها . وإذا كان الخيال يفترض العدم في موضوعاته ، عدم العالم بالنسبة للنفس التي تتخيل ، فإلى حد ما يفترض الإدراك هذا أيضاً ، ولا يمكن كما ذكرنا ، إدراك العالم أو موضوع فيه إلا إذا كنا قادرين على اتخاذ حركة تراجع وانسحاب بالنسبة له ، وما معنى هذا التراجع إلا أننا في الإدراك لا نقرر على الإطلاق أننا والعالم شيء واحد ، بل إننا نعتبر العلم عدماً بالنسبة للنفس . وهذا بالضبط ما يقوله هيدجر إن : « العدم قائم في جوهر الوجود » .

ولكن واضح أن النفس لا تقرر هذا العدم تقريراً صريحاً في الإدراك الحسي كما تفعل في الخيال . وواضح أن النفس عند اتحادها بالعالم في الإدراك الحسي ،

عند اتخاذها ، على قول سارتر ، الموقف الواقعي ، تقترب من العالم أشد الاقتراب . فتراجعها عن العالم في الإدراك بالقوة لا بالفعل ، وتجاوزها له ، بالقوة لا بالفعل . وواضح أخيراً أن الخيال انقلاب النفس من حالة القوة إلى حالة الفعل ، فتتخلى النفس عن مقتضيات العالم ، عندما تطغى هذه على النفس وتفقدها حرمتها .

إذا كان الخيال يعني مجهود النفس للتخلص من مقتضيات الوجود ، ولإعطاء الحرية أتم معانيها ، فالنفس دون شك هو أقصى مراتب الخيال ، وهو أكثر أفعاله استقراراً وانتظاماً . للفن على الأقل ما للخيال من خصائص ، ولآيات الفن ما لموضوعات الخيال من المميزات . فالفنان لا يعمل كما يدعى البعض على تحقيق فكرة مثالية أو على إنزالها إلى ميدان الواقع ، وصبغها بالوانه ، بل يجهد الفنان ، ما استطاع ، أن يخرج ذاته ومضوعاته من الواقع . انظر إلى هذه اللوحة لماتيس المصور الفرنسي المعاصر ، تجرد اللون الأحمر فيها يكتسب قيمته الفنية بقربه من صوف سجادة ، ثم لاحظ كيف يتخذ اللون الأخضر الذي يغطي الحائط فيها لمعناً جافياً جامداً ، وذلك بمجاورته للأحمر المذكور . والحقيقة أن ألوان اللوحة تكتسب معناها ومغزاها من موقعها في كلٍّ غير موجود أمامنا ، في كلٍّ قائم في العدم . واللوحة التي أمامنا وألوانها وتركيب هذه الألوان فيما بينها تمضي بذهننا إلى كلٍّ في العدم يوحي لنا المصور به ، ويريد منا أن نشاهده في اللوحة .

أنت في دار من دور الموسيقى تتوقع سماع السيمفونيا السابعة لبيتهوفن : قبل ما تبدأ الجوقة ، فأنت مثل غيرك من الناس تشعر بمرور الوقت شعوراً واقعياً يتفاوت حسب ملاسبات خارجية أو حسب حالة نفسك ، ولكن ما تبدأ الجوقة بالعزف ، حتى تأخذك النعمة من الواقع ، وتنتقل بك إلى عالم آخر هو عالم السيمفونيا السابعة ذاتها . وهذه السيمفونيا التي تنصت لها في روعة وخشوع لا تبدأ بالمعنى الدقيق في هذا الوقت أو ذلك ، ولا تمر أجزاءها بلحظات الزمن الذي يقدره الناس بشعورهم أو بساعاتهم . والسيمفونيا السابعة نهاية ؛ ولكن هذه النهاية لا تسبق لحظة أخرى هي التي ستجسد نفسك فيها عند ما تترك مع المستمعين دار الموسيقى ، بل لا تقوم هذه النهاية إلا بالنسبة لابتداء السيمفونيا ولأجزائها المختلفة ، ولا علاقة زمنية لها زمنك أو زمن الآخرين .

تأمل فيما تشعر به عند خروجك من المسرح من الاستمزاز . كنت في عالم آخر تملك نفسك حتى عجزت ، عند زواله ، عن اتخاذ ما يناسب العالم الواقعي من المواقف . هذه وأمثلة أخرى غيرها تؤيد فكرة سارتر في أن الفن كجميع مظاهر الخيال يفترض انعدام العالم .

أخيراً يؤدي بنا التفكير في الصلة الوثيقة بين الفن والجمال إلى القول بأن الجمال غير متحقق في الوجود ، وأن العالم في ذاته غير جميل ، وأننا لا نشعر بالجمال إلا بقدر ما نتراجع عن العالم ، وبقدر ما يدخل العالم بالنسبة لنا في العدم . ويقول سارتر إننا لا نستطيع القول عن امرأة إنها جميلة إذا كنا نراها أو نلمسها ، بل جمال المرأة يصبح حقيقة لا يد لا تلمس ، ولأعين لا تبصر .

هذا بإيجاز ما يراه سارتر في الخيال وفي صلته بالإدراك والوجود ، وهذا ما يخلص له من النتائج في الفن والجمال . ولسنا نرمي إلى التعرض لهذه النتائج بالفحص والتحصيل ، ولا إلى تخطيط سارتر فيما يدعيه من انفصال قيم الفن والجمال عن الحياة والواقع ، ولا إلى مناقشة موقفه من الوجود والعدم بالرغم مما لهذا الموقف من الخطر والأهمية . ولكننا نكتفي بالإشارة إلى المسألة الرئيسية التي يعالجها في كتاب « الخيالي » . ويبدو لنا أنه إذا لمناضعف موقفه من الخيال وضعف منهجه في معالجة الخيال ، لمخنا ولو عن بعد ، موقفه إزاء المشكلات الأخرى المتعلقة بالفن وبالفلسفة البحتة .

نلاحظ أولاً أن سارتر لم يميز بين نوعين من الخيال : واحد يسترجع ما أعطاه الحس مرة أو مرات ، ويفرب من الذاكرة إلا في أنه غير مصحوب بتعرف ولا بتعيين . وآخر يصنع موضوعاته صنفاً ، ويؤلفها تأليفاً . لا يميز بين نوعين من الصور ، صور راجعة وصور جديدة . وإن كان كثير مما يذكره سارتر ينطبق على الخيال المخترع ، فلا شك في أن أغلبه لا ينطبق بأي حال من الأحوال على الخيال الآخر ، وهو صورة أو تصور طبق الأصل لما أعطاه لنا الإدراك الحسي . ولا شك أن سارتر بإهماله هذا التمييز يقنع القارئ الساذج بمجرد ما وصل إليه من النتائج ، وباتساع الميدان الذي عملت بحوثه على اكتشافه .

هناك ثانياً نواح في وصف سارتر لا نرى بالضبط صلتها بفعل الخيال . فما يذكره خاصة عن الشبه القائم بين مظاهر الخيال ، وضروب السحر والشعوذة أو تصورات البدائيين شيء قد كان يجدر به عدم الاسترسال فيه . وأغلب الظن

عندنا أنه طرّق هذه الأبواب . لأنها من ناحية تسمح له بإنشاء أدبي يقبل عليه الجمهور ويحبه ، ولأنها متصلة من ناحية أخرى ببعض نظريات رائج في هذه الأيام ، يفترض صحتها دون أن يعرض لها بالتفصيل ، ودون أن يناقش قيمتها على الإطلاق .

يقول سارتر إن الخيال إنكار هو مظهر لحرية النفس ، وإن موضوعه العدم . ويدعى أن هذا التفسير قد أعانته في حل المشكلة القائمة بصدده صلة الخيال بالإدراك الحسي . ولكن لا يسعنا إلا أن نلاحظ هنا أن ما اعتبره سارتر شرطاً لازماً لفعل الخيال ، عاد فصرح بأنه لازم أيضاً للإدراك ، بل قبل ضمناً أنه شرط لازم لجميع أفعال الشعور أيا كانت : ففي كل فعل من أفعالها تنكر النفس أنها والعالم شيء واحد ، وفي كل فعل تقرر ضمناً أو صراحة حريتها . أي إن الشرط المذكور لا ينطبق على فعل الخيال فحسب ، بل هو عام مشترك بين جميع أفعال النفس . لا يميز سارتر إذن الخيال عن غيره ، ولا يفرقه في ذاته ، ولا يعيّنهُ بالمعنى الدقيق ؛ فهو لا يفسره من حيث هو خيال .

وجملة القول : عميل سارتر على إعطائنا وصفاً سيكولوجياً دقيقاً للخيال ، ووفق في ذلك أتم التوفيق . ونجح سارتر في معالجة المسائل المتصلة بالخيال بطريقة جذابة مشوقة ، وعبر عن آرائه بأسلوب جميل رائع ، ونظم أفكاره تنظيمًا لبقاً دقيقاً . ثم إنه حاول إيجاد تفسير فلسفي للخيال ولموضوعاته ، فلم يوفق في ذلك ، ولم يحصل بالفعل على شيء دقيق . وربما أمكن ردُّ عدم توفيقه هذا إلى ما ينقص سارتر من مميزات الفيلسوف الحقيقي ، أي الدقة في التحليل والتمييز ، والقدرة على رؤية الأشياء كما هي في ذاتها ، وعلى الفحص عن المسائل في أعماقها ، والجهد المتصل بلوغ الحقيقة المجردة مهما كان السبيل إليها وعراً عسيراً .

تحيب بلدى